الفصل التاسع

أطفالي

خططنا صيف عام ٢٠٠١م أن نذهب إلى الأردن في عطلة، لكن كان علينا أن ننتظر حمزة حتى يأخذ إجازة من العمل؛ لذلك أمضيت أنا والأطفال أيامنا نلعب على الشاطئ، ونأكل الحلويات، ونحزم أمتعتنا إلى أن أصبح حمزة جاهزًا للمغادرة، وعندما سافرنا أخيرًا إلى الأردن بقيت في منزلنا هناك مع أطفالي، لكن لم يبقَ معنا حمزة إلا أربعة أيام، ثم ذهب إلى فلسطين ليرى غادة، وترك الأطفال معي؛ حتى لا أشعر بالوحدة، لكن في الحقيقة كان خائفًا من أن أحدًا من أبنائي يؤذيها.

تركته هذه المرة يذهب دون شجار، فقد قررت أن أستمتع بعطلتي بغض النظر عما يفعله زوجي مع زوجته الأخرى في فلسطين، ذهبت إلى منزل والديّ، وبقيت معهما طوال اليوم، أما أطفالي فتركتهم يمضون الليلة عند أولاد أخوالهم وخالاتهم، ولم أهتم إن اكتشف حمزة الأمر، فليغضب! ماذا يسعه أن يفعل لي الآن؟

في نهاية شهر تموز تقريبًا عاد حمزة من فلسطين. وأخبرني فجأة بأني لن أعود معه إلى السعودية.

«وعدت والديّ غادة أن آخذها معي، سيأتي يوسف وأنس وسارة معنا وغادة، أما روان وعبدالرحمن فسيبقيان معك».

أجبته، ويداي ترتعشان: «لا، لن تأخذهم».

«أنا والدهم يا فدوى، ولي الحق في اتخاذ هذا القرار».

لم أقل شيئًا، لكني لم أكن لأدعه يغادر البلد مع أطفالي، وتساءلت: كيف سيأخذ غادة إلى شقتنا في سكن أرامكو. فأرامكو شركة أمريكية، ولا تعترف بتعدد الزوجات، وكيف استطاع حمزة الحصول لها على تأشيرة هناك؟

قررت أن أكتشف الأمر، أحضر حمزة معه إلى المنزل حقيبة سفر سحّاباها مربوطان بقفل. فعرفت أن هناك سببًا جعله يضع ذلك القفل، وفي صباح اليوم المقبل، بينما كان

الجميع نائمين أحضرت سكينًا من المطبخ، وكسرت القفل، فوجدت داخل الحقيبة ظرفًا بنيًّا كبيرًا، فعرفت أن تأشيرة غادة في داخله.

كنت مخطئة، فعندما أخذت الظرف إلى غرفتي، وفتحته لم أجد اسم غادة على الأوراق، بل اسمي في كل صفحة كان اسم (فدوى حمدان) مذكورًا بوصفي رفيقة حمزة في السفر. حمزة مسافر بالسيارة، تلك كانت طريقته في إتمام الأمر، فالنساء في السعودية يغطين رؤوسهن ووجوههن، ولن يشك أحد في زوجة حمزة، وهي مرتدية النقاب، فعلى الحدود سيقوم الجنود بالتأكد من هويتها، لكن لن يكونوا عديمي الإحساس، ويطلبوا منها كشف وجهها ليتحققوا أنها هي المدعوة فدوى، كما في الصورة. أخبرني أنس لاحقًا أن حمزة ظل يحث غادة، ويذكرها، قائلًا: «الآن اسمك فدوى».

لكن في تلك اللحظة، وأنا في غرفتي كان لايزال لدي أمل في منع حدوث هذا كله، فأرجعت الأوراق داخل الظرف، وأقفلت عليها في خزانة غرفة نومي، ثم أقفلت باب الغرفة، وخبأت المفتاح.

لم يطل الأمر، حتى استيقظ حمزة، وذهب إلى المطبخ ليجد حقيبته مفتوحة وربطات عنقه وجواربه وقمصانه مبعثرة على الأرض. فاحمر وجهه غضبًا.

«أين الظرف يا فدوى؟».

«لن أعطيك إياه».

بدأ حمزة يصرخ علي؛ لأعطيه الظرف، ثم دفعني الى الحائط، فهو لم يمد يده علي أبدًا من قبل، دفعته أنا بدوري، ثم صفعني على وجهي، وشدّ شعري.

التقطت حوض نبتة من على عتبة النافذة، وكسرته على رأسه.

أسرع يوسف وأنس إلى الغرفة ليحولا بيننا، ممسكين أرجلنا.

«بابا، ماما، توقفا عن الشجار!».

دفعني حمزة من أمامه، وذهب يبحث عن الظرف في أنحاء المنزل، وعندما وجد باب غرفة نومي مقفلًا رجع للخلف، وركله بقوة، فانخلع الباب، ثم رمى بطانياتي على الأرض، وقلب الفرشة، لكنه لم يجد الظرف، وفي النهاية كسر باب الخزانة، فعرفت أنني هُزمت، بعد ذلك أخذ الظرف، ووضع ملابسه في حقيبته، وغادر ليقيم في فندق.

وفي الثلاثين من شهر تموز قرع حمزة الباب الأمامي، ففتحت له.

«يوسف، أنس، سارة، جهزوا أنفسكم، سوف نذهب لنتسوق، ونشتري ثيابًا مدرسية جديدة».

«لا يا حمزة، لن تأخذ أطفالي بعيدًا عني».

ثم مرّ من أمامي.

عندما جهز الأطفال أنفسهم أخذهم للخارج دون أن يقول كلمة.

أمسكت بروان وعبدالرحمن، وتبعت حمزة.

«حمزة، خذ ما تبقى من أطفالك أيضًا».

«لا تحرجي نفسك يا فدوى».

«خذ روان وعبدالرحمن، أبقِ الأطفال مع بعضهم».

اعتقدت أنهم سوف يرجعون، وانتظرت إلى بعد حلول الظلام.

تأخر المساء، ولم يرجع حمزة والأطفال بعدُ من رحلة التسوق؛ لذلك قررت أن أخرج، وأبحث عنهم، جهزت روان، ووضعت عبدالرحمن في عربة الأطفال، ثم مشينا في الشارع الذي كان فيه محل الأحذية الذي يملكه أبوحمزة، فربما توقف حمزة هناك ليرى أصدقاء أبيه القدامى، سألت هنا وهناك، لكن لم يَرَ أحد حمزة والأطفال، ثم سألني رجل (أبوحسن، وهو صديق والد حمزة): ما المشكلة؟

أجبته، محاولة ألا أبدو مذعورة جدًّا: «أخذ زوجي أولادي، ولا أعرف أين هم».

«لا تقلقلي، فهو أبوهم، ولن يؤذيهم، وهو يعرف أنك أمهم، وأنك تنتظرينهم، أنا متأكد أنه سيعيدهم إلى المنزل قريبًا».

ابتسمت له، وشكرته على مساعدته، ثم رجعت إلى المنزل، لكن في اليوم المقبل أيضًا لم أسمع خبرًا من حمزة، فذهبت إلى الشارع نفسه مرة أخرى، وسألت جاره إن كان رأى حمزة؟، لكن دون جدوى. اتصلت على جوال حمزة المتنقل وبمنزلنا في السعودية وبمنزل والديه في فلسطين، لكن لم يرد علي أحد، ثم عاودت الاتصال مرة تلو الأخرى ويومًا بعد يوم.

بعد أن مرّ اثنا عشـر يومًا سـمعت أخيرًا صوت سـماعة الهاتف ترتفع، وردّ علي يوسف. إذن أخذهما حمزة إلى السعودية، كما اعتقدت، أوشكت أن أبكي عندما سمعت صوت ابني.

«مرحبًا ماما، كيف حالك؟».

«أنا بخير يا يوسف، وأنت؟» حاولت أن أخفي عنه قلقي الشديد.

تحدثت معه بضـع دقائق، ثم تحدثت مع أنس. وبعد أن طمأنني بأنه بخير طلبت منه أن أتحدث مع سارة.

سكت لحظة.

«إنها ليست هنا يا ماما».

«ماذا تعني أنها ليست هنا؟ أين هي إذن؟».

«تركها أبي في فلسطين عند سيدي وستي».

«من عندكم الآن؟».

«الخالة غادة».

يا إلهي، ابنتي وحدها دون والديها أو إخوانها! لذلك ذهبت، واتصلت بوالديّ حمزة مرة أخرى، كنت أعرف أنهم في النهاية سـوف يسـأمون من سـماع الهاتف يرن باسـتمرار، كانت حماتي هي من استسلمت، وردّت علي أخيرًا.

«ألو؟».

«هل تعيش سارة عندكم؟».

«نعم» لم تقل أي كلمة أخرى، بل أعطت سماعة الهاتف لزوجها.

«مرحبًا يا فدوى».

«أريـد ابنتي» اسـتغنيت عن تحيات الأدب في هـذه المرحلة، فأنا لم أعـد أحترم هؤلاء الأشخاص.

«أعطِني ابنتي! أريدها أن تعيش معي!».

بدا (حماي) مدهوشًا، وقال: «لماذا تصرخين يا فدوى؟ عليك أن تتحدثي مع زوجك في هذه الأمور».

«ربما آتي إلى فلسطين، وآخذها، لن تستطيع إيقافي».

ضحك قائلًا: «افعلي ذلك، تعالي!» ثم أنهى المكالمة قبل أن أتمكن من قول شيء آخر، كنت أعرف أنه لا يصدق أنني سأقوم بذلك خوفًا مما سيفعله حمزة بي، عندما يكتشف الأمر.

لم يعجبني بقاء سارة مع جديها، ولم أكن مقتنعة بأنهم سيخبرونني إن حدث لها مكروه، أردت أن أسمع صوتها؛ حتى أتأكد أنها بخير؛ لذلك أجريت في اليوم المقبل مكالمة خارجية إلى فلسطين، وطلبت أن أتحدث مع سارة.

بدا (حماي) مثيرًا غضبًا.

«سارة سعيدة يا فدوى، إنها تلعب في الخارج. دعيها وشأنها».

كانت المكالمات باهظة الثمن، لكن كان علي التحدث مع ابنتي، وفي اليوم الثالث أخبروني بأن سارة لا تستطيع التحدث على الهاتف؛ لأنها نائمة، جعلتني كل تلك المماطلات أتوقع أسوأ الاحتمالات، فقررت أن أسافر إلى فلسطين لأرى ابنتي. كان جواز سفري معي، لذلك كان بإمكاني مغادرة البلد.

كان الوضع سيئًا في إسرائيل في ذلك العام، وكنت متأكدة أن والديّ سيمنعاني من الذهاب إن علما خطتي للسفر، وهكذا اتصلت بمنيرة زوجة أخي (ليس منيرة بنت خالتي صديقة الطفولة) وطلبت منها الاعتناء بروان وعبدالرحمن بضعة أيام، ثم حزمت بعض الملابس والحفاظات، وأعطيت منيرة بعض المال؛ لتنفقه على الطفلين.

سألتني روان الصغيرة: «ماما، إلى أين أنت ذاهبة؟».

قبلت خدها الناعم، وهمست في أذنها: إنني سأرجع، وأحضر أختك معي للمنزل. ثم استقللت سيارة أجرة إلى منزلي، واتصلت بأختي الكبيرة (نعمة) حتى يعرف أحدهم أين ذهبت في حال حدوث شيء.

«لا تخبري أحدًا إلى أين أنا ذاهبة، حتى أصل إلى هناك».

«لن أفعل يا فدوى. اعتني بنفسك!».

بعد ذلك، وأول مرة في حياتي، شرعت أسافر وحدي، فوضعت الحجاب حول رأسي، وأنزلت النقاب على وجهي. وبحقيبة صغيرة تحت ذراعي أوقفت سيارة أجرة، وطلبت من السائق أن يأخذني إلى الحدود، عبرت خلال نقاط التفتيش الواقعة على الجهة الأردنية والجهة الإسرائيلية من الحدود. ثم طلب مني جندي إسرائيلي أن أرفع نقابي، وأريه وجهي، فقبلت.

بعد نقطة التفتيش الثانية أخذت سيارة أجرة من الحدود إلى محطة الحافلات. لم يسلك سائق سيارة الأجرة المسار المعتاد، بل ظل يغير الشوارع، ويسلك طرقًا مجهولة حول الجبال. تشاركت أنا وركاب آخرون سيارة الأجرة، وكان على كل واحد منا دفع ١٠٠ شيكل.

احتج راكب في المقعد الأمامي، قائلًا: «هذا كثير جدًّا!».

كشّر السائق، وضحك قليلًا، ثم قال: «انتظر، وستعرف لماذا».

وبعد مدة قصيرة من انطلاقنا وصلنا بالسيارة إلى ممر جبلي ضيق، وتوقفت سيارة الأجرة فجأة كان في منتصف الطريق كومة كبيرة من الحجارة رماها بعض الأطفال الإسرائيليين، كوموها هناك؛ لذلك كان على الرجال في سيارة الأجرة أن يترجلوا، وينزلوا من السيارة؛ لإزاحة الحجارة عن الطريق؛ حتى تمر السيارة، ثم تقدمنا قليلًا، وتوقفنا عندما رأينا كومة أخرى من الحجارة.

أنزلت النافذة؛ لأدخل بعض الهواء النقي إلى السيارة، لكن السائق حذرني بسرعة؛ لكي أغلقها. وفورًا بعد أن أغلقتها بدأ مجموعة من أطفال إسرائيليين رمي الحجارة علينا، وكنت أراقب ما يجري، بينما كانت الحجارة ذات الحواف المسننة تضرب زجاج السيارة، وتقع على الأرض، وعندما نظرت ورائي رأيتهم يُرجعون الحجارة إلى منتصف الطريق؛ ليكونوا كومة جديدة من الحجارة، ويلقوها على من يأتي بعدنا من المارّة.

بعد ثلاث ساعات وصلنا أخيرًا وجهتنا، ثم مشيت حتى وجدت الحافلة المتوجهة إلى بلدة (دار أبومشعل). كنت أول شخص يركب الحافلة، وكان علي الانتظار حتى تمتلئ بالكامل، ثم ننطلق. وقفت بالقرب من السائق؛ لأدفع الأجرة لكن لم أعرف ما العملة المستخدمة محليًّا، خجلت قليلًا، ووضعت في يدي أوراقًا نقدية عدة مختلفة الشكل.

«أي واحدة تريد؟».

«ألست من هذه المنطقة؟».

«لا».

شرح لي بصبر الفرق بين الشيكل والنصف شيكل، وساعدني على احتساب أجرة الحافلة، ثم سألني إلى أي مكان في المدينة أريد أن أذهب، كنت قد قررت من قبل أن أتحدث مع خالات حمزة قبل رؤية والديه في حال احتجت إلى مساندة.

«هل تعرف أم أشرف؟».

سكت السائق لحظة.

«ممم، نعم، لكن أي واحدة؟».

لم أستطع تذكر اسم زوجها، لذلك حاولت تذكر معلومات أخرى يمكن أن تساعد.

«إنها تعيش في منازل البلدة القديمة، ولديها أخت اسمها أم حمزة تعيش مع زوجها في منازل البلدة الجديدة».

«آه، أعرف أم أشرف تلك لا تقلقي. سوف آخذك إلى هناك».

جلست على مقعدي، ورتبت نقابي، وبعد أن تحركت الحافلة التفتّ جانبي، فلاحظت أنني أعرف المرأة التي تجلس بقربي، كان اسمها الحاجة صالحة (كنا نناديها باسمها، وليس بكنيتها) وكانت قد زارتني في نيويورك، وأقامت عندنا أسبوعًا، أردت أن أصرخ بأعلى صوتي، وأعانقها لهذه المصادفة غير المتوقعة، لكن عندئذ سيعرف كل من في الحافلة من أنا؛ لذلك لم أرد المخاطرة بأن يعرف أهل زوجي أنني هنا قبل أن أكون مستعدة لإخبارهم بذلك.

جلست بصمت، بينما طافت الحافلة ببلدة (دار أبومشعل) الصغيرة، وكنا نتوقف بين حين وآخر؛ ليترجل الركاب. وفي النهاية عندما بقيت أنا والسائق فقط في الحافلة سألني مرة أخرى إن كنت أعرف اسم زوج أم أشرف؟

«حسنًا، أنا على أي حال أعرف أي أم أشرف تريدين، و هل أنت من العائلة؟».

«نعم».

«لأم أشرف ابن أخ اسمه حمزة، الجميع في البلدة يتحدث عنه الآن بسبب الشيء الرهيب الذي فعله، ولا أحد هنا يحترمه بعد الآن، فهو قد تزوج امرأة أخرى دون أي سبب، لديه خمسة أطفال وسيمون، وكل من التقى زوجته يعرف أنها امرأة طيبة، لكن من يدري، ربما يريد أطفالاً أكثر، ولا تستطيع منحه إياهم».

وفجأة خرجت الكلمات من فمي دون وعي، وأجبته: «لا، ليس ذلك هو السبب، فهي لا تزال تمنحه الأطفال، أنا فدوى (أم يوسف) زوجته الأولى، وقد أنجبت له ابنًا قبل مدة قصيرة».

«أنت زوجته الأولى! أنا آسف، لم أقصد أن أتحدث كثيرًا عن عائلتك، لكن، إن سمحت لي أن أسأل: لماذا فعل زوجك هذا بك؟».

تنهدت، وحاولت أن أفكر في جواب مؤدب، وقلت له: «لا أعرف، أرجوك، دعنا لا نتحدث عن هذا الأمر».

ابتسم السائق لي ابتسامة تعاطف، وأنزلني عند ناصية الشارع. ثم مشيت صفًّا من البيوت إلى أن وصلت إلى منزل أم أشرف، وقرعت بابها، وأنا مترددة قليلًا، فتح زوجها الباب، وأخبرته من أكون.

«أم يوسف، ما هذه المفاجأة؟! تفضلي، تفضلي. خرجت أم أشرف لتتسوق لعرس ابنتها، لكنها سوف ترجع بعد الظهر، وإلى حين عودتها سوف تأخذك بناتي لزيارة الخالة أم إبراهيم».

عندما رأتني أم إبراهيم واقفة على بابها مع بنات أختها تغرغرت عيناها بالدموع، وتبلل خداها وأنفها، وعندما رأيتها تبكي على هذا النحو بدأت أنا أيضًا بالبكاء.

«أرجوك توقفي عن البكاء يا خالة».

«لا أستطيع! فأنا لا أفهم لماذا فعل حمزة هذا بك يا أم يوسف».

أخبرتها لماذا جئت إلى فلسطين، وسألتني إن كنت قد ذهبت لرؤية والديّ حمزة.

«لا، لم أذهب، لكني سأفعل لاحقًا يجب أن أكون حذرة عند فعل هذا؛ حتى أتمكن من استرجاع ابنتي سارة».

«هل ستأخذين ابنتك معك للمنزل؟ لكن حمزة قال: إنك لا تريدينها، لقد أخبر الجميع بذلك، وقال: إن هذا هو سبب إحضارها معه».

«أنت أم أيضًا يا خالة أم إبراهيم، وتعرفين أن هذا غير صحيح. فلماذا قد أخاطر بحياتي مسافرة عبر منطقة حرب إن لم أرد ابنتي، لا، هذا غير صحيح لم أرغب أبدًا في التخلي عنها، حمزة أخذها مني».

نظرت إلي أم إبراهيم مدهوشةً، عندما سمعت هذه التطورات الجديدة في القصة.

«لا تقلقي يا أم يوسف، دعينا ننتظر أم أشرف حتى تعود للمنزل، وبعد ذلك سنفكر ثلاثتنا فيما سنفعله، في أثناء ذلك عليك أن تأكلي شيئًا».

في الحقيقة لم أتناول شيئًا طوال اليوم إلا كيسًا من الشيبسي، حتى إنني لم أشرب شيئًا طوال اليوم أيضًا؛ لأتجنب الذهاب إلى المرحاض في أثناء عبورنا منطقة الحرب. كنت لاأزال غير جائعة، لكن أم إبراهيم كانت لحوحة جدًّا، ولم يهدأ بالها إلا عندما أكلت صحنًا من الرز والبامية، وبعد أن تناولت أنا وبنات أختها طعام الغداء، وصلينا ذهبنا لنلتقي أم أشرف في منزلها.

عندما وصلت بيت أم أشرف أخيرًا، فإذا بها قادمة، ورأتني في غرفة المعيشة رمت ما في يديها، وركضت لتعانقني، وتقبلني، ثم قصصت عليها ما حدث معي.

«لماذا لا تأتين معي للتحدث مع والديه؟».

«لا، لا أريد أن أراهما».

لذلك ذهبت أم أشرف للتحدث معهما نيابة عني، وعندما عادت أخبرتني بأن (حماي) كان مدهوشًا؛ لأنني لم آتِ لأراه هو وزوجته أولًا.

«(ما زال هذا المنزل منزلها، اطلبي منها أن تأتي لتقيم معنا ومع ابنتها) هذا ما قاله لي، فما رأيك يا أم يوسف؟».

«لا، يا خالتي، لا أستطيع لقد تزوج امرأة أخرى، وأخذها إلى منزل والديه، فهو ليس منزلي بعد الآن، أرجوك دعيني أقيم عندك بدلًا من ذلك».

«بلا ريب تستطيعين الإقامة عندي إن رغبت، لكن في بالي شيء أفضل من ذلك بكثير،

لقد اتصلت بمحمد، أبي زوجة حمزة السابقة، وهو يعيش في بورتوريكو حاليًّا، وإنه يملك منزلًا هنا. أخبرني محمد بأنه لا مانع من أن تقيمي أنت وبناتي في منزله في أثناء وجودك في البلدة، وأرسل لك أحرّ التمنيات، وأخبرنا بأن نفعل ما في وسعنا لمساعدتك على استرجاع ابنتك».

«شكرًا لك يا خالتي».

أخذتني أم أشرف إلى المدرسة التي تدرس فيها ابنتي (سارة) ثم تحدثنا إلى مديرة المدرسة، التي قامت باستدعاء سارة إلى مكتبها، وعندما رأتني سارة جالسة في الغرفة بدأت بالبكاء، وعانقتني بسرعة، لكن بعد ذلك وقفت في الغرفة مرتبكة قليلًا.

«سارة حبيبتي، لقد أتيت إلى هنا لأراك، وآخذك معي إلى الأردن!».

بدا أنها تريد أن تقول لي شيئًا، لكنها بقيت صامتة كان عمرها ثماني سنوات ونصفًا في ذلك الحين، وكانت خجولة قليلًا، حضنتها بشدة لحظة، ورجعت على فصلها إلى حصتها الدراسية، وأخبرتها بأن تذهب إلى المنزل مع أصغر بنات أم أشرف، التي كانت في صفها نفسه.

بينما كنا ننتظر انتهاء اليوم الدراسي ذهبت أنا وأم أشرف إلى منزل أم إبراهيم. وكان (حماي) ينتظرني هناك؛ ليتحدث معي.

«تعالي معنا للمنزل يا فدوى، تعالي وأقيمي في منزلك، وقابلي ابنتك».

«لا، أنا لدي مكان أقيم فيه».

«فدوى، لا ترتكبي خطأ».

«أنا لا أرتكب خطأ، فمنزلك ليس منزلي بعد الآن، وأنت تعرف من عاش هناك».

«لم أكن أنا وحماتك السبب في زواج حمزة، ونحن لم نفعل شيئًا لإيذائك».

لم أستطع أن أمرّ على تلك الكذبة دون تعليق.

«لا تخبرني بأنكما لستما السبب! فأنا أعرف ما فعلتما بي أنت وزوجتك دمرتما حياتي».

وعندما أدرك أن لا جدوى توقف عن محاولة تغيير رأيي، وعاد لمنزله، وبعد قليل رجعت سارة إلى المنزل من المدرسة، وانتقلت أنا وسارة وابنتا خالة حمزة إلى منزل محمد، وبقينا مستيقظات إلى وقت متأخر من الليل، حاولت ابنتا خالة حمزة جهدهما أن يجعلاني أضحك ليخففا من توتر الوضع، وفي منتصف الليل بدتا مدهوشتين كيف مر الوقت بهذه بسرعة!

«أسرعي يا أم يوسف، ساعدينا على إطفاء جميع المصابيح!» وانطلقتا من غرفة لأخرى لإطفاء المصابيح، ثم رجعتا وبأيديهما شموع.

«لم أطفأتما المصابيح؟ أنتما لستما صغيرتين، ويحق لكما أن تسهرا».

«أم يوسف، تعالي وانظري خارج النافذة».

تبعتهما، وراقبت من زاوية الستارة عندما أزحنها قليلاً، كان الجنود الإسرائيليون يسيرون في كل شارع.

«علينا أن نطفئ مصابيح المنزل كل ليلة عند منتصف الليل، فإذا تركنا ولو مصباحًا واحدًا مشتعلًا، ورآنا الجنود فسوف يطلقون النار على منزلنا، لا يسمح لنا بعد منتصف الليل إلا باستخدام الشموع إذا احتجنا إلى أن نذهب إلى الحمام أو إلى المطبخ».

احتجت إلى لحظة لأسترجع صوتي، فقد صدمت كثيرًا بما سمعته، ولما تكلمت تكلمت همسًا.

«لم تعيشون على هذا النحو؟».

«عشنا في هذا الجو سنوات عدة. ربما يبدو الأمر غريبًا لك، لكنه شيء طبيعي بالنسبة إلينا».

وعندما حان وقت النوم جاءت سارة بين ذراعي، ووضعت رأسها على صدري.

وبعد بضع دقائق سألتني بنعومة: «ماما، لماذا لا تحبينني؟».

«من قال لك هذا؟ لماذا تعتقدين أنني لا أحبك؟».

«الجميع في منزل جدي يقولون هذا، وقال لي أبي: إنه أحضرني إلى هنا؛ لأنك لا تريدينني».

«سارة، ألا تري الوضع في إسرائيل الآن؟ لماذا قد أخاطر بالقدوم هنا إن لم أحبك؟».

«لا أريد البقاء هنا يا ماما».

«أعرف ذلك، وأنا أيضًا لا أريدك أن تبقي هنا، لكني لا أستطيع إرجاعك للوطن الآن؛ لأن جواز سفرك ليس معي».

«جواز سفري مع جدي».

وفي صباح اليوم المقبل ذهبت أم أشرف لتطلب من والد حمزة إعطاءها جواز سفر سارة، لكن احمر وجهه غضبًا، وبدأ يصرخ عليها، كما أخبرتني.

«جواز السفر ليس معي! كل ما معي هو شهادة ولادتها! خذي هاتفي، واتصلي بحمزة، واسأليه بنفسك إن كنت لا تصدقيني».

اتصلت أم أشرف بحمزة في السعودية، وسألته عن جواز سفر سارة.

«لا، يا خالتي، إنه ليس مع أبي، لكن لا تقلقي! سوف أرجع سارة إلى الأردن. أعدك بذلك».

وفي اليوم المقبل جاء (حماي) ليراني، ثم أعطاني هاتفه الخلوي، قائلًا:

«تحدثي مع زوجك».

«حمزة؟».

«عودي للمنزل يا فدوى، سوف أرجع سارة إلى الأردن أول أيام عيد الفطر».

«لكن باقٍ على العيد ثلاثة أشهر!».

«لا تفعلي شيئًا أحمق يا فدوى، اهدئي».

طلبت من أم أشرف رأيها.

«ماذا لو كان يكذب علي؟».

«تبدو تلك خطة جيدة يا أم يوسف، فإذا كان يكذب سوف نجد طريقة أخرى لنرجع ابنتك إليك».

رجع (حماي) إلى منزله، وعرض علي أبناء خالة حمزة أن يساعدوني على الذهاب إلى السفارة الأمريكية لأرى ما يمكن عمله، لكن أم أشرف أسكتت الجميع بسرعة.

«دعونا ننتظر، ونرى ما إن كان حمزة يلتزم بوعده أم لا».

قبلت نصيحتها، وأنا مترددة، وعدت إلى الأردن دون ابنتي سارة.